



تحت كاهل



فاطمة سامي بخيت

إهداء:

إلى من بفضلها أصبحتُ أفضل من
الأمس "نفسي".

المقدمة:

اليابسة، كما يعرفها الجميع، مكان متنوع
المخلوقات والظروف.

لكن هناك عالمًا آخر يختلف عن عالمنا
تمامًا، عالم يعيش تحت الماء، لا نعرف عنه
سوى القليل.

عالم تُعاش تفاصيله بأكسجين مذاب في
محلول أزرق، حيث تُقاس الحياة بالحركة،
ويُقاس الأمان بالانتماء إلى السرب.

ستُزاح الستائر عما هو خارج المألوف.
سمكة تسبح خلف ما يسمى مستحيلًا،
خلف ظل تخشاه البحار رغم هدوئه.

الكاهل، كما يسميه القدماء، بحر بلا حدود.
وبين هذه الصفحات، ستكتشفون أنه
المكان حيث يضيع الحب، وتغدو قوانين
الطبيعة حقيقة لا مناص منها.

**البحر لا يعرف العاطفة، يعرف
الاحتمال فقط**

في عمقٍ أزرق لا تصل إليه الضوضاء، حيث يخف
الضوء ويثقل الصمت، وُلدت الحكاية.

لم تكن سمكةً بعد، بل بيضةً صغيرة ألقتها أمها
في حضن المحيط، واحدةً من ملايين، بلا وداعٍ
ولا وعد.

البحر لا يعرف العاطفة؛ يعرف الاحتمال فقط.

مرّت الأيام، انشق الغلاف، وخرجت يرقة شفافة
هشة، تطفو قرب السطح حيث الخطر أقرب من
الأمل.

كانت تأكل ما يتاح، وتهرب مما لا يرى.

معظم من وُلدوا معها اختفوا، فالبقاء هنا حظٌ .

كبرت قليلاً.

تشكلت الزعانف، واشتد الجسد،

وصارت يافعةٌ تعرف السباحة في جماعة.

بصوتٍ يهمس تحت زرقة الماء:

وجدتُ نفسي تونةً صغيرةً بين سربٍ كبير يضم

أحجامًا مختلفة.

كانت لنا غايتان لا ثالث لهما:

أن نسبح بحثًا عن الطعام، وأن نهرب من

الافتراس والصيد.

عشتُ سنتي الأولى داخل السرب كما يفعل

الجميع، بحثًا عن الحماية.
كنت هادئة، على غير عادة التونات؛ أسبح،
لكنني أنصت أكثر مما أتحدث.
كنت أسمع أحاديثهم عن المخلوقات التي
تسكن الأعماق، عن أخطارٍ لا نراها، وعن اسمٍ
يتكرر دائمًا: الحوت القاتل.

كانوا يقولون إننا فريسته المفضلة،
وأن مجرد الاقتراب منه يعني الهلاك.

داخل رأسي تكاثرت الأسئلة:
كيف يبدو؟

هل هو حقًا مخيف إلى هذا الحد؟
هل يملك القدرة على الاصطياد من مسافات

بعيدة؟

اسم الحوت بيننا كان يعني الخطر،
أما بالنسبة لي فكان يعني الفضول.

كان لي صديقة في السرب، في عمري
وحجمي تقريبا.

كنت أخبرها دائما أنني أريد رؤية الحوت، فقط
لأعرف شكله.

كانت ترتجف لمجرد أن أنطق اسمه، وتطلب
مني التوقف.

قلت لها مرة:

«كيف نعرف عدونا إن لم نره؟»

نحن في بداية عمرنا، ومن حقنا أن نعرف أشكال
مفترسينا.»

كانت تنهي الحديث دائماً بخوفٍ لا أستطيع
فهمه،

وينتهي بيننا الجدل دون نتيجة.

مرّت الأيام، كنا نسبح بانسجام مع التيار البارد.
كان الفصل شتاءً، لكن دماءنا الحارة تجعل
أجسادنا تقاوم البرودة.

اتجهنا نحو سربٍ من السردين.
هاجمناه بسرعة، ومن سوء حظه لم يفلت منه
الكثير.

أكلت حتى شعرت بالامتلاء لأول مرة منذ مدة.

وأثناء انشغال السرب بالصيد،
مرّ ظل هائل فوقنا.

رفعتُ رأسي، واتسعت حدقتاي.
شعرتُ وكأن الزمن توقف.

جسد طويل، لونه أسود يتوسطه الأبيض.
لم يندفع، لم يهاجم، كان هناك فقط.

قاطع شرودي صراخ السرب:
«الحوث القاتل!»

وفي لحظة واحدة تفرّق الجميع بأقصى سرعة.

نظرتُ نحوه وقلبي يدق، ليس خوفاً، بل شيئاً
لم أفهمه بعد، ثم لحقتُ بهم.
أهمس لنفسي وأنا أشعر بشيءٍ لا أعرف
اسمه:

«لقد رأيتُ الحوت.»

وتساءلت: لماذا يخافونه؟
لم أرَ فيه شيئاً مخيفاً،
بل شيئاً يسحر العقل.

اختبأ السرب خلف جبلٍ صخري.
بحثتُ عن صديقتي، وجدتها تلهث وزعانفها
ترتجف.

قلتُ بعينين تلمعان:

«رأيتُه، كان مخلوقًا عجيبيًا، مختلفًا عن كل ما
رأيتُه من قبل.»

قاطعتني وهي تلتقط أنفاسها:
«رأيتُه، لا أريد الحديث عنه.»

قبل أن أرد، اقتربت منا سمكة كبيرة في السن،
وقالت بصوتٍ حازم:
«يا صغار، الحوت القاتل أكبر من ذلك.
الذي رأيتموه كان صغيرًا.»

توقفت زعانفي عن الحركة من الدهشة:
«هل الحوت...»

قاطعتني قائلة:

«المخاطر تسبح حولنا من كل اتجاه:
القرش، والحيوت القاتل، وبعض الأسماك الأخرى.
وما تسمونه حوتًا ليس سوى نوعٍ كبيرٍ من
الدلافين، لذلك أطلق عليه هذا الاسم.
أما بقية الحيتان فهي مسالمة جدًا مع التونة.»

ابتعدت متجهةً إلى مقدمة السرب،
وبدأ السرب يسبح بهدوء.

قالت صديقتي وهي تقترب من منتصفه:
«المنتصف آمن، سأكون هناك.»

قلبتُ عيناى بملل وقلت:
«أنتِ مجرد سمكة تختبئ خلف الآخرين.»

تقدمت تخترق السرب بهدوء، دون أن ترد على
كلماتي.

نظرتُ إليها بازدراء:
«لا أصدق أنني جزء من سربٍ لم يجرب
المواجهة.»

فكرتُ بأن أفعل شيئاً لا يستطيع السرب فعله.
ماذا لو قطعتُ المحيط بمفردي؟
أريد خوض مطاردة مع القروش.

صمت قليلاً ثم ابتسمت:

«وماذا لو كانت المطاردة من قبيل حوت؟

مغامرة في قلب المحيط أكون أنا بطلتها.»

في جهةٍ أخرى من العمق، يسبح صاحب الظل
المهيب قرب أمه.

قال بصوتٍ لم يخفِ فضوله:

«رأيتُ اليوم سرباً من التونة.»

لم تلتفت إليه فوراً، واصلت سباحتها بهدوء، ثم

قالت:

«وهربوا.»

توقف قليلاً، كأن الفكرة لم تكتمل في رأسه:
«نعم، كانوا سريعين.»

نظرت إليه أخيراً، نظرة تعرف أكثر مما تقول:
«التونة تعرف متى تنجو.»

دار حولها بحركة واسعة، لا تشبه حركات الصيد:
«لم أكن أنوي مطاردتهم.»

ساد صمت ثقيل، ثم قالت الأم بعده:
«ليس كل ما نراه يُقصد به الصيد.»

توقف عن السباحة لحظة، كأن الجملة علقت
في داخله.

لم يسأل، لكنه حفظها.

اقتربت منه قليلاً، وقالت بصوتٍ خافت:
«ستتعلم مع الوقت ما الذي يستحق الانتباه،
وما الذي يُترك للتيار.»

تحرك بعدها ببطء، وعيناه تتبعان فراغاً بعيداً،
كأنه يبحث عن شيءٍ لم يعرف اسمه بعد.

اتخاذ قرار

حلّ الليل، وبدأت أسماك التونة بإبطاء
نبضها الداخلي، وكأنها تتراجع عن الحياة
قليلاً دون أن تنقطع عنها.
تسبح بخط مستقيم، خفيفة الحركة، تمرّ
الماء عبر خياشيمها، ولا يتوقف تنفّسها.

في هذا السكون الجزئي، يُغلق دماغها
بعض الوظائف غير الضرورية، فتستعيد
طاقتها، لكن جسدها لا يعرف الخمول
الكامل.

تتسلل إليها لحظات صفاء، لكنها تظل في
حركة مستمرة، في سباق صامت مع
البقاء.

لم يكن البحر مكانًا للراحة الكاملة، ولا
للنوم المريح كما يعرفه البشر،
لكن التونة، بعقلها البسيط والذكي، عرفت
كيف تنام دون أن تتوقف.

في الصباح، يتسلل ضوء الشمس إلى
المياه، ويزداد النشاط.
تستيقظ بلا تعب، تنظر حولها لتتذكر أنها
تونة وسط سربٍ متفرق نتيجة النوم.
يبدأ الجميع بالاستيقاظ والتجمع من جديد،
ثم الشروع في البحث عن الطعام.

يسبح السرب بشكل متناغم مع التيار.

وبالقرب من أعشاب البحر، رأى السرب
سمك الروبيان.

وجدت نفسها مدفوعة مع الأسماك
الصغيرة، بينما ابتعدت الأسماك الكبيرة
عنهم بثقة.

انقضّ السرب على الروبيان بعنف، وبدأ
الصيد.
أفلت جزء منه، لكن السرب انقضّ على
الكمية الأكبر.

توقفت التونة عن الأكل:»
طعم الروبيان مختلف عن السردين، لكن

للسردين طعامًا مميزًا وطريقًا.»

كانت صديقتها تمضغ بشراهة، فأجابتها دون تردد:

«شيء يسدّ الجوع، لا يهم ما نوعه.»

تحركت التونة بانسياب، تنظر إلى بقية السرب وهو يأكل.

ابتلعت ما في فمها، ولاحظت بقية السرب يتجه نحوهن، فقالت:

«أجل، أتعلمين أن الأسماك الكبيرة ترى أن الروبيان وجبة غير مشبعة؟»

كانت صديقتها منشغلة بمضغ الطعام، لا
تكثر بما تقوله التونة.

سبحن لينضممن إلى السرب، فأكملت
التونة:

«لذلك ابتعدن للبحث عن سمك آخر.»

سمعن ضجة في السرب تأتي من
المقدمة، حيث تتواجد الأسماك الكبيرة.
نطقت إحدى الأسماك الكبيرة:
«هذه المنطقة أصبحت شبه خالية من
الطعام المناسب لنا.»

وافقتها أخرى:
«أجل، لم نجد ما نأكله اليوم، لذلك يجب
علينا الهجرة.»

اتسعت مقلتا التونة؛
فهي الآن تفكر أنها ستسبح في محيطٍ
آخر.

تكلمت السمكة الكبيرة:
«سنتجه شمالاً، سيكون الصيد هناك
وفيراً.»

طعم الهجرة و الخوف

انضمَّ بقية السرب بعد أن أنهى تناول
وجبته، وانطلق السرب شمالاً، حيث تكثر
الأسماك في المناطق الاستوائية.

كانت الهجرة ممتعة للأسماك الصغيرة
والمتوسطة؛ فمن خلالها رأت مخلوقات
بحرية جديدة، واكتشفت ممرات مائية لم
تعبرها من قبل، وكانت أجسادهن قادرة
على السباحة لمسافات بعيدة.
أمّا بالنسبة للأسماك الكبيرة، فكانت
الهجرة أمراً اعتيادياً.

كان كل شيء يسير على ما يرام، إلى أن
هاجمت السرب فجأة مجموعة من القروش
البيضاء.

دبَّ الرعب، وتفرَّق السرب لينجو كل
بحياته.

بفمٍ مفتوح، يتنفس أكبر قدر ممكن من
الأكسجين المذاب، قالت:
كنت في نهاية السرب. سمعت صراخًا،
وماءً مضطربًا، ورأيت بعض الدماء، وكانت
رائحته تملأ المياه.
كانت تلك المرة الأولى التي أشعر فيها
بالخوف.
سبحت بأقصى سرعة مبتعدة عن السرب،
ولم أكن أفكر في شيء سوى النجاة.
واصلت السباحة حتى دخلت بين الصخور.
كنت أرتجف، وأتحرك لالتقاط أكبر قدر من
الأكسجين.
بدأت نبضات قلبي تهدأ، وفجأة تذكرت
صديقتي.
فزعت من جديد، وأصبحت أدور بين الصخور

أفكر: ما الذي حلّ بها؟

مرّ الوقت بثقل وأنا على تلك الحال.
قررت أخيراً أن أتجه نحو مكان الهجوم.
سبحت بتوترٍ يتصاعد كلما اقتربت، وحين
وصلت، وجدت المكان هادئاً.
كان السرب أقل بكثير مما كان عليه، يقف
بجانب أعشابٍ بحرية في صمت.
صمتٍ على الأرواح التي أُلقي بها إلى
الهلاك قليلاً قليلاً.

بدأت أدور أبحث عنها، لعلّي أجدها.
كاد قلبي ينفجر من نبضاته المتسارعة،
وأصاب جسدي ثقل كآزّه شلل.
وأخيراً وجدتُها في منتصف السرب، ترتجف.

تنفست بارتياح، وشعرت كأن قيود الثقل قد

تفككت عني.
اقتربت منها بسرعة، أدور حولها، وأسألها:
— هل أنتِ بخير؟

نظرت نحوي، تسبح ببطء، وأجابت:
— نعم، ظننتُ أنكِ انتهيتِ.

تنهدت بعمق دون أن أقول شيئاً.

ما حدث كان أمراً طبيعياً بالنسبة للسرب،
أمّا بالنسبة لنا، فكانت صدمة ضربت
أعماقنا،
رغم أننا نعلم طبيعة المحيط، لكننا عشناها
اليوم.

استمرت الهجرة بعدها طويلاً، ولكن بحذر
شديد.

كنا نسبح بمحاذاة الأعشاب الطويلة، وخلف
الصخور،
حتى وجدت الأسماك الكبيرة مبتغاها،
وشرعت في الصيد.

كنت أشعر ببعض الجوع أيضًا، فبدأنا
بالبحث عن طعام.
وجدنا أسماك الرنجة، وأخبرتنا سمكة كبيرة
أنها لذيذة ومفيدة لنا كيافعين.

وكان كلامها صحيحًا.
لذيذة، مقرمشة، واستمتعت بأكلها.

ما يأسر رغم المسافة

بين الشَّدَّعَاب، مرَّت عائلة الأوركا مهاجرةً
نحو الجنوب، حيث المحيط أكثر برودة.
لكنها كانت تعرف جيداً أن فرصة تقاطعها
مع المسار المربح للصيد كبيرة.
لم يكن هناك صخب، ولا عويل، فقط هدوء
البحار، وعيون سوداء تراقب كل حركة.

رأت مجموعةً من الفقمة تلهو بالقرب من
السطح. اقتربت بحذر، تتحرك كالظل،
مستغلة التيارات، ومحكمة حساباتها.
انقضّت بسهولة على فريستها، بينما كان
الصغير يشاهد بفخرٍ ممزوج بالحماس،
راغباً في خوض التجربة بنفسه.

التفت إلى فقمة صغيرة تحاول الهرب،
ولمعت عيناه، فاندفع خلفها بسرعة.
لاحظت أمه ما يفعله، وكانت منشغلة
بمصارعة إحدى الفقمت التي تلفظ
أنفاسها الأخيرة بين أسنانها الحادة.

وبالفعل، الصغير، رغم حداثة سنه، أمسك
بالفقمة من ذيلها ليعيق حركتها، ونجح في
ذلك.

أخذ يجرّها حتى السطح، وضعها على
طرف الجليد، وبدأ يأكلها بنهم.
كانت أمه هناك، تلتهم فريستها، وتراقب

صغيرها يفعل المثل. ابتسمت داخليًا لما
رأته عيناها.

بعد أن فرغت العائلة من تناول وجبتها، بدأت
تسبح وتقوم بقفزات كبيرة فوق السطح
بطريقة احترافية،

بينما كان الصغير يقلّدُها بحماس، تشجعه
والدته على كل حركة، مستمتعًا بالمغامرة
الأولى التي صنعت له خبرة لا تُنسى.

مرت الشهور، واستمرت هجرات الأوركا نحو
الشمال، حيث كان سرب التونة ينعم بكثرة
الصيد والأمان.

بين الأعشاب الطويلة، كانت أسماك التونة
الصغيرة تلهو، تلعب لعبة الاختباء.
ومن خلف عشب كبيرة، قالت لنفسها:
«هذه اللعبة جميلة، دائماً أختبئ ولا
يجدني أحد.»

فجأة، شعرتُ بتيار قوي مندفع.
ببطء سبحتُ نحو مقدمة الأعشاب،
فتجمّد الدم في عروقي.
ارتجفت زعانفي، وتحركت بسرعة نحو
القاع.

رأيت عائلةً من الحيتان العملاقة تنقض

على السرب كاملاً.

أصاب جسدي رعشة شديدة، وكان صوت
الماء يصفع وجهي وكأنه يحذّرني من
الاقتراب.

نعم، شعرت بالخوف، لكن ليس من
الحيّتان، بل من أن أفقد حياتي وأنا لم أرَ
شيئاً بعد.

رفعت رأسي مجدداً، ووقعت عيناى على
الحيّات الصغير، يقف يشاهد ما تفعله عائلته
دون أن يتدخل.

اتسعت حدقتاي عندما تذكرت أنه نفس

الحوث الذي رأيته أول مرة.
شعرت بمزيج من الانبهار والارتباك، وكأن
قلبي يقول إنه يختلف عن الآخرين؛
هادئ، غير مندفع، عميق بطريقة لا أفهمها.
عمق عيَنيّه كان يأسرني رغم المسافة.
شيء فيه جعلني مشدوّهة، وكأن البحر
نفسه يروي قصة صامته عن الصبر والقوة.
وحين غادرت المجموعة، بقي خلفهم
للحظة، ثم تبعهم.
كنت أراقب حركته، متأملةً إياه، حتى ابتعد
عن نظري.

أفقت من ذلك، وسبحت بسرعة نحو بقية
الأعشاب أبحث عنها، ووجدتها هناك.
هذه المرة كانت تتمم بكلمات لم أفهمها.
أخذت أدور حولها لأشعرها بالاطمئنان،
لكنها بقيت على حالها.
صفعتها بذيلي، فاستيقظت بذعر وقالت:
«رأيتُ كل ما حدث هناك.»

أخذت تدور بين الأعشاب بسرعة، وحركتها
متوترة:
«الحيتان خطيرة.»

كنت أسمعها دون أن أقاطعها. شعرت

بالحزن عليها، علمًا بأنها مرتبطة بالسرب
أكثر مني.

ظهرت بعض الأسماك الصغيرة؛ جميعهم
مثل صديقتي، مهتزين من الداخل بسبب
ما حدث.

لم يعد هناك سرب يمكننا الانضمام إليه،
فقررنا أن نقود أنفسنا بأنفسنا.

كوّنا سربًا صغيرًا، وانطلقنا من هناك نحو
موطننا.

صحيح أنه لم يكن آمنًا تمامًا، لكننا
سنشعر هناك بشيء من الاطمئنان.

كانت العودة ثقيلة على قلوبنا، مليئة
بالصمت،
نأكل ما نجده أمامنا لنستعيد طاقتنا
للسباحة.

وصلنا أخيرًا إلى هناك، حيث وجدنا
أسماكًا صغيرة وكبيرة.
قررت بقية الأسماك الانضمام إلى سربهم،
وبالفعل أصبح لدينا سرب جديد.
تدريجياً، عاد كل شيء إلى طبيعته،
وكان البحر نفسه يعيد التوازن بعد العاصفة.

سحابۃ حزنِ امطرت فراقًا

مع مرور الوقت، أصبحت التونة بالغة.
كبر جسدها، واكتسى ظهرها وجانباها
العلويان بلونٍ أزرق معدني داكن، بينما
ظلّت جوانبها السفلية وبطنها بيضاء
ناصعة.

زعنفتها الأولى على ظهرها صارت صفراء
داكنة، تليها أخرى بلونٍ أكثر هدوءاً، فيما
امتدت زعانفها الصغيرة صفراء زاهية،
تحدّها حواف سوداء حادّة.
لم يعد التغير جسدياً فقط.
أصبحت قادرة على إنتاج البيض، وكذلك
صديقتها.

لكن النضج الذي بلغته لم يكن في الجسد

وحده، بل في الشعور أيضًا؛
في الطريقة التي تنظر بها إلى البحر،
وفي فهمها للفرائس والمخاطر.

من مقدّمة السرب، قالت:
«اصطفّ خلفنا الاسماك، نحن من نحمى
السرب، هناك الكثير من الأسماك الصغيرة
خلفنا، يفعلون الآن ما فعلناه سابقًا.
نحن نتجه إلى موطننا بعد هجرة دامت
طويلاً، ثم سنهاجر مع سرب الأسماك
الكبيرة نحو المناطق الدافئة لوضع البيض.
هذه المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك، بما
أنني الآن تونة بالغة.

وصلنا إلى الوطن، حيث كل شيء مألوف،
ثم انضمنا إلى سربٍ آخر يتجه نحو
مناطق التكاثر.

بدأت الرحلة، واستمرت السباحة طويلاً.
لم أشعر بالتعب؛ فالله خلق الحركة جزءاً
من حياتي.

إن توقفت عن السباحة، لن يدخل الماء إلى
خياشيمي، وسأختنق وأموت.

أثناء ذلك، رأى السرب ظل حوت يتجه نحونا.
فزع الجميع وسبحوا في الاتجاه المعاكس.
أما أنا، فتوقفت أنظر إليه.

شعرت بصديقتي تدفعني بقوة، فعدت
أتحرك مسرعة معها.

دخلنا نفقًا صخريًا واسعًا، ننتظر حتى
يبتعد.

كان السرب كلّه ينظر نحوي.
شعرت أنهم ينتظرون تفسيرًا لما فعلت،
لكنني لم أتكلّم.

نظرت إليّ صديقتي، وعيناها مشتعلة
غضبًا:

«هل كنتِ تريدين الموت؟»

حاولت أن أبرّر:

«إنه هو، كما أخبرتك... لا يأكل التونة. لقد
رأيتك تلك المرّة عند...»

قاطعتني وهي تدور حولي بعصبية، كأنها
تحاول تبديد غضبها:

«يكفي. لقد أخبرتني بهذا مرارًا. إنه حوت،
وأنت لا تعلمين شيئًا عن حياة الحيتان.»

شعرت بحزنٍ يتغلغل داخلي، فرفعت
صوتي:

«صحيح أنني لست حوتًا، لكنه مختلف
عن...»

قاطعتني مجددًا بغضبٍ أشدّ:

«أنتِ تونة مجنونة. هو ليس مختلفًا. أنتِ

ترين ذلك لأنك تبحثين عن شيء مختلف

عذًا.

عودي إلى وعيك، نحن نعيش في محيط لا

يعرف المشاعر.»

كان السرب صامتًا، يستمع لكل شيء.

شعرت بالاختناق، رغم وفرة الأكسجين.

فسبحت خارج النفق، وما زالت كلمات

صديقتي تطاردني وهي تلحق بي.

كنت أسبح نحو السطح، لا أعلم إلى أين
أذهب.

فجأة التفت^س إليها بعد أن سمعت أصواتًا
غريبة:

«هل سمعتِ؟ إنه نداء الحيتان لبعضها، إنه
صوته، يبحث عن عائلته.»

صفعتني بذيلها بقوة:
«أنتِ لستِ حوتًا لتسمعي شيئًا. نحن لا
نسمع ترددات أصواتهم.»

ابتعدت عنها وقلت بصوتٍ منخفض:

«لكنني أسمع، ربما نحن من النوع نفسه،
لكن هناك اختلافات.»

وفي تلك اللحظة،
علّقنا في شبكة صيد.
أصبحنا نحاول فكّ قيودنا، لكن دون فائدة.
شعرنا بالشبكة تُسحب من المياه
تدريجياً.

كلّتا حاولت بكل ما أوتيت من قوة.
خرجت الشبكة من المحيط.
بدأ الاختناق يتسلّل إليّ ببطء.
سمعت الصيادين يقولون:
«توجد سمكتان فقط.»

ومع ذلك، لم أتوقف عن المحاولة.
قلت لصديقتي وأنا أرتجف:
«هيا، ابذلي جهدًا أكبر.»

وأثناء سحب الشبكة، حين صعدت إلى
القارب،
تمكنتُ من الإفلات،
وسقطت في المحيط مجددًا.

شعرت بالحياة تعود إلى جسدي،
لكن صديقتي ما زالت هناك.

تحرّك المركب، وأصبحت أتبعه من تحت
المياه.
حتى توقّف.

أخرجت رأسي لأرى الصيادين ينزلون
اليابسة،
وأحدهم يحمل الشبكة،
وكانت هي بداخلها.
ساكنة، فمها مفتوح.

عدت أدراجي، سبحت نحو العمق،
وأشعر أن جزءاً بداخلي قد رحل إلى الأبد.

أصبح المحيط رماديًا فجأة، وفارغًا.
حتى الأكسجين شعرت أنه ينفد مع كل
نفس أخذه.

سبحت بأقصى سرعة،
وأفكّر أنني السبب في كل ما حدث.
لو لم أتشاجر معها،
لو لم أبتعد،
لما حدث هذا.

ندمت،
حيث لا ينفع الندم.

مرّ الوقت، وكان الألم ينهش داخلي بلا
رحمة.

استسلمت للأمر، وسبحت قاصدة المكان
الذي كنا سنذهب إليه.

نعم،
واصلت الطريق وحدي،

لا أعلم شيئاً عن السرب.
شيء الوحيد الذي كان يجعلني أنتمي إليه
لم يعد موجوداً، أكملت الطريق.
كنت أصادف بعض أسماك المحار
والقشريات،

أحصل على وجبتي،
وأواصل السباحة.

وحين وصلت،
شعرت بدفء المياه يلف جسدي.
سبحت ببطء،
وألقيت مئات البيوض هناك.

سيولد الصغار،
يعتمدون على أنفسهم،
يبحثون عن غذائهم وحدهم.

نحن لسنا مثل الحيتان.

لا نحمي صغارنا.
نرمي جزءاً منا،
ونرحل،
كأننا لسنا السبب في وجودهم.

تفقس البيوض،
ويجد الصغير نفسه وحيداً.
لا حضن يأويه،
ولا أمّ تحميه.

المشاعر مرآة للذات

وسط اجتماعٍ عائليٍّ للأوركا، لقد كبر
الحوث.

أصبح يافعًا، ازداد حجم جسده، وازداد
عمق عينيه، لكنه لا يزال ضمن عائلته.
صار له أخ صغير، يقوم بتعليمه الصيد برفقة
والدته.

هجموا على مجموعةٍ من البطاريق،
ينهشونها بشراهة.

وبصوتٍ عميق، نطق وهو يتلذذ بلحم
البطريق:

«لحمه طريّ، أحتاج أن أصطاد واحداً آخر

لأشبع.»

نظر إلى أخيه الصغير، الذي كان يطار

بطريقاً يسبح بسرعة، ثم قفز على الجليد

وهرب.

تراجع الحوت الصغير حزيناً.

سبح نحوه، وسأله بقية البطريق.

وبعد أن التقطها منه الصغير، قال:

«شاهد وتعلّم.»

أخذ أخاه يأكل، وسبح خلفه، حتى وجد

بطاريق في المياه.

انطلق بسرعة نحوها، وفي غمضة عينٍ

أمسك بواحدٍ منها.

تحمّس الحوت الصغير، رمى آخر قطعةٍ من

فمه، وانطلق كالصاروخ نحو أحدها، وأمسك

به من عنقه.

لوّح له بذيله علامة فخرٍ بما فعله الصغير.

في تلك الأثناء، كانت التونة تجوب البحر

وحيدة.

فرأت أمامها منظر الحوتين وهما يأكلان.

اضطرب نبضها، وازداد معدل تنفسها،
واتسعت مقلتها تشعان باللمعان.
اختبأت خلف صخرة، تراقبهما، لكن تركيزها
كان على ذاك الذي أنهى وجبته.
أصبح يلعب في المياه، يقفز بحرية.
كانت تشاهده يخرج إلى السطح ثم يعود
إلى الداخل.
فتحت فمها، محدقة بدهشة، لما رآته لأول
مرة.

ثم أصبح الصغير يقلده بالحركات نفسها،

تحت عينيها.

همست لنفسها:

«حوت يعيش حياته بسلام، بينما أنا ألاحق

ظلاّه.

لا أملك الشجاعة حتى لأقف أمامه.

هل الحب يدفعك إلى حافة الشجاعة، بينما

أنت جبان؟

لكن أين أنا من كل هذا؟

لا أملك الحق في أن أسمّي ما أشعر به

حبّاً،

وأنا لا أعرف عنه شيئاً سوى ما تراه
عيناى.

صحيح، أحببته طوال تلك السنوات،

من الأشياء التي رأيتة يفعلها،

من حضوره البعيد،

دون أن يكون بيننا لقاء،

ولا حتى نظرة.»

تنهدت بحزنٍ عميقٍ واستسلام:

«صحيح، أتمنى أن يحدث بيننا لقاء عابر،

أو نظرة،

شيء بسيط يشعرنني بأنني مرئية بالنسبة
له.

لكن ربما لم ينبعث هذا الحب داخلي
ليعيش على أرض الواقع،
بل ليخبرني بأنني مختلفة،
بأنني كائن يملك مشاعر
في مكانٍ لا يعرف الرحمة.»

تحرّكت التونة من خلف الصخرة، واعدةً
نفسها أن تحتفظ بالحب، لكنها لن تركض
خلفه.

بزعانف مرتجفة، سبحت مبتعدة عن
الحيوت، وفمها مفتوح يلتقط أكبر قدر من
الأكسجين.

قالت في داخلها: «
قرار مجنون أن أتخلى عن شيءٍ أحبه، وأن
أرحل بعيداً عنه.

كان في داخلي صوتان يتشاجران.

الأول يقول: اذهبي بعيدًا، ما تشعرين به حقيقي، لكنه لن يكون يومًا على ماء هذا المحيط.

والآخر يقول: انتظري من تحبين، حتى وإن كنتِ تعلمين أن قدومه نحوك مستحيل.

نعم، كانا عقلي وقلبي.
وأنا، كسمكة، اخترت المحيط وقوانينه.
اخترت الابتعاد، رغم أن القرار جعلني أرتجف، وأنهار حزنًا.

فالقوة والصدق لا يكمنان في الركض خلف

ما نحب،
بل في أن نحملة داخلنا،
ونكمل الحياة،
نحبه، ونؤمن به،
رغم المسافات التي يفرضها الواقع أمامنا.

سأفعل شيئًا كنت أخشاه منذ زمن.
سأرحل الآن نحو الشمال،
لا هروبًا،
بل حفاظًا على قلبي،
وعلى مشاعري نحوه.

إكتفاء بلا ضجيج

استمرت هجرتي طويلاً، أشق الممرات
والمضائق، يمر الوقت وأنا أسبح بين
المخاطر وحدي، أبحث عن الغذاء، ويملأني
الفراغ.

مرّت سنتان أو أكثر، وما زلت أجوب المحيط
بمفردي، رغم أنني أصادف أسراباً كثيرة
من التونة، لكنني لا ألتفت.

تعرضت لأكثر من هجوم من مفترسين
مختلفين، وكنت أنجو في كل مرة بمعجزة.

لكن في تلك المرة، حين شعرت بهدوء
التيارات الدافئة، رأيت سرباً كبيراً من

أسماك الرنجة يتفرق، وظهر من بينه أوركا
ضخم، يسبح بهدوء متجهًا نحوي.
حين أدركت أنه هو، شعرت فجأة ببرودة
الماء، تجمدت في مكاني، لم أتحرك.
مرّ بجانبني دون أن يؤذيني، لكن عينيّ
التقتا بعينيّه لثوانٍ.

رحل الحوت بعيدًا، بينما بقيت واقفة
أستوعب ما رأيت.»
خرج مني صوت هادئ، على عكس
العواصف التي كانت تضج داخلي:»
اليوم أدركت أن ما شعرت به لم يكن

إحساسًا عابرًا، بل شعورًا ظل حيًا
بداخلي، رغم ظني أنه تلاشى.
أنا ممتنة له، لأنه جعلني أشعر، وجعلني
أرى المحيط بعينه أكثر جمالًا.
هو سيد الأعماق، وعمقي لا يتسع
لسواه.»

تنهدت، وأنا أشعر بشيءٍ لم أفهمه بعد، ثم
واصلت سباحتي نحو مضيق دافئ، حيث
وجدت سريرًا من التونة يستعد للهجرة.
نظرت إليه طويلًا، أستعيد الماضي،
وشعرت بحنينٍ للدفء وللأمان، وهمست:

«أصبحت أقوى، لكن هذا لا يعني أنني لا
أحتاج إلى السرب.

تعلمت من سنواتي التي قضيتها وحيدة، أن
السرب ليس للحماية فقط، بل لنشعر أننا
جزء من مجتمع، من عائلة.
سأنضم إلى السرب لأجل نفسي».

سبحت لتخترق السرب، وتقدمت في
المقدمة، مندفعة، يتبعها الآخرون نحو أماكن
مختلفة، لتعيش ما تبقى لها، وهي تحمل
في داخلها كنزاً جعلها تكتشف ذاتها.
وفي هذه المرة، سمعت صوته يتردد في

الأرجاء، لكنها لم ألتفت، بل ابتسمت،
وواصلت طريقها نحو المجهول في قاعِ
مظلم.

النهاية